Dr. Muhammad Junaid ibn Muhammad NURI DIRSHAWI,
Associate Professor of Islamic Jurisprudence .
Bulgar Islamic Academy, Tatarstan, Russian Federation.
E-mail: mmjnd69@hotmail.com

DOI: 10.47980/MOTURIDIY/2022/3/4

أهمية المنهج الماتريدي في تحصين الشّباب من الغلو

ИМОМ МОТУРИДИЙ ТАЪЛИМОТИНИНГ ЁШЛАР ОРАСИДА РАДИКАЛ ҒОЯЛАР ТАРҚАЛИШИНИНГ ОЛДИНИ ОЛИШДАГИ АҲАМИЯТИ

THE SIGNIFICANCE OF THE TEACHINGS OF IMAM MATURIDI IN PREVENTING THE SPREAD OF RADICAL IDEAS AMONG YOUTH

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة: الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على خير خلقه سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد. فالشّباب أمل الأمة وعِمادُها، وذخرها وثروتها، فعلى طاقاتهم الذّهنية والبدنية تنهض الأمة وتترقّى في مدارج التقدّم والازدهار والحضارة.

ورهان الأمة في معركة تحقيق الذّات وإثبات الهوية على شبابها .. ولكنّ شبابنا اليوم عُرْضة للاختطاف، ومن ثَمَّ فإنّ الأمة مهدّدة بخسارة هذا الرّهان – لا قدّر الله – إن هي لم تتّخذ التدابير اللاّزمة للمحافظة على ثروتها الشّبابية، وتحصينها. وإنّ أعظم ما يتهدّد شباب الأمّة خطران اثنان، هما:

الأوّل: التغرُّب والانسلاخ من الهوية، وذلك نتيجة التأثّر بما يثار من الإشكالات الفكرية التي تصل إليهم عبر وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التواصل.

والثاني: انزلاق الشّباب إلى الانحراف والغُلُو، والانقلاب على الأمّة والخروج على حاضرها والكفر بماضيها، ونسبة رموز الأمة وأعلام أئمّتها إلى الضّلال والكفر. فيُبتَرون من جرّاء ذلك من جذورهم. وإنّ النتيجة الطبيعية لذلك أن يتيهوا في أو دية التطرّف .. وإنّ المحاولات والدعوات التي تسعى للإيقاع بالشّباب كثيرة ومتنوعة.

ولذا فقد كان لزامًا على الأمّة أن تولي هذه المسألة عناية فائقة، وأن تجعلها في مقدّمة أولويّاتها. ولا ريب أنّ ضمانة نجاح الأمة في مهمّتها هذه نشرُ الوعي وتحصين العقل.

أمّا التصدّي للخطر الأول فيتمثّل في تبصير النّشء بالمناهج العقلية الرّصينة التي اشتهرت بها بلاد ما وراء النّهر، سمرقند وبخارى وما حولهما.. فقد كان ذلك المنهج العقلاني المحْكَم صمام أمان لتلك البلاد، بل كان مستعصَمًا للأمّة كلّها – إلى جانب المنهج الأشعري – استطاع أن يوحّد الوجهة الفكرية للأمّة الإسلامية على تعاقب العصور، وقد وضعت اللّبنات الأولى لهذا المنهج، وأسّست أصوله وشيّدت أركانه في بلاد ما وراء النهر، على يد الإمام أبي منصور الماتريدي رحمه الله.

وأمّا الخطر الثاني فإنّ التصدّي له يتطلّب بيان الحقيقة التي لا تخفى على العلماء والمثقّفين، ألا وهي أنّ العقيدة الماتريدية قد تلقّاها أئمّتها من الإمام أبي حنيفة النعمان، وأنّها تشكّل لباب منهج أهل السّنّة والجماعة، وأنّ الخروج عليها خروج على العقيدة التي قبلتها واتّبعتها الجمهرة العظمى والسّواد الأعظم من المسلمين .. وحتى من لم يكن متبنّيًا لهذا المنهج لم يكن فيهم مَن ينسب هذه العقيدة إلى البدعة، ولا متّبعيها إلى الضّلال، بل كانوا يقرّون بكونها منهجًا سنيًّا أصيلاً، كمن يتّبع مذهبًا من مذاهبنا الفقهية الأربعة، فإنّه يحترم المذاهب الأخرى غاية الاحترام.

وسأحاول تفصيل هذا الكلام في المبحثين التاليين:

المبحث الأول – تحصين الشّباب من التغرُّب والانحراف في العقيدة

لا يخفى على أيّ مثقّف أنّ من أهمّ المخاوف التي يحذّر منها رجال الفكر والعلم في العالم انجرار النّشء وراء التيّار الجارف للانترنت ووسائل التواصل الحديثة، التي أحدثت ثورةً عارمة في العالم لا عهد للبشرية بها. ولقد تنبّأ بعض رجال الفكر أوّلاً أنّ هذا التقدّم وما يحمله من الوسائل ستختطف النّشء، و ستسلبه كثيرًا من مقوّمات إنسانيته، وتجرّده من القيم والمبادئ التي كانت تسود المجتمعات البشرية خلال تاريخها، وستقضي على العواطف والمشاعر الإنسانية بحيث يصبح الإنسان كالآلة.

ولكنّ شباب المسلمين – زيادة على ما ذكرناه – يتعرض اليوم لهجمات شرسة من جهات كثيرة، تسعى إلى زعزعة يقينه بدينه وإلى تجريده من إيمانه، وذلك بإلقاء الشبهات العقلية و الفكرية الكثيرة والمختلفة؛ ليقنعوا الشّباب أنّ دينهم لا يتّفق مع ما يقرّره العلم وتثبته العقول .. وإزاء هذا الكيد الذي تكاد به أمّتنا ينبغي أن ننمّي في شبابنا الثقة بدينهم من خلال بعث المناهج الإسلامية العقلية. وإنّ أبرز من يمثّل المنهج الإسلامي الصّحيح المدرسة الماتريدية، وإنّ من شأن تبصير الجيل بمنهج هذه المدرسة العقلية العظيمة أن يحوط الشبّاب بوقاية أكيدة ضدّ كلّ شبهة تُثار، وتجعله قادرًا على إثبات ما يقرّره الدّين من الحقائق بلغة العقل والمنطق والفلسفة، بعيدًا عن التشنُّج والكلام العاطفي.

فما أهمّ ما ينبغي بيانه للجيل وتعليمه إياه من أسس هذا المنهج العلمي العقلاني لنضمن سلامة إيمانه، وتحصين عقله وفكره؟ سنبيّن ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأوّل – بناء الثّقة بالعقل وأحكامه: المدرسة الماتريدية مدرسة أصيلة وعريقة، وتشكّل – إلى جانب المدرسة الأشعرية – علم الكلام الإسلامي السُّنّي الذي مثّل الإسلام في كل العصور.

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

الملخص. كما نعلم أن الشباب هم أمل الأمة وعمودها ، وكنزها وثروتها ، وعلى أساس طاقتهم العقلية والبدنية تنهض الأمة وتنمي وترقى. لكن الأمة المسلمة اليوم تواجه خطر فقدان شبابها. هناك نوعان من التهديدات الرئيسية للشباب في الوقت الحالي؛ الأول هو فقدانهم للهوية نتيجة للتغرُّب، والثاني هو الاتجاه المتزايد للشباب للتطرف والغلو. ومن ثَمّ هناك حالة من الانخداع بين الشباب لمختلف الأفكار الأجنبية. العقيدة الإسلامية لها دور كبير في التخلص من مثل هذه المواقف السلبية. في هذا المقال، بناءً على إرث الإمام الماتريدي والمدرسة الماتريدية، يتم تقديم آراء مهمة حول حماية الشباب من تهديدات اليوم وتوجيههم إلى التنوير.

الكلمات المفتاحية: الامام الماتريدي، أبو حنيفة، العقيدة، الفقه، المذهب الفقهي، الماتريدية، غلو، تغرب، تطرف.

Аннотация. *Маълумки, ёшлар миллатнинг умиди ва устуни, унинг хазинаси ва бойлиги ҳисобланади. Уларнинг ақлий ва жисмоний куч-ғайрати асосида эл-юрт юксалиб, тараққиёт ва фаровонликка эришади. Аммо бугунги кунда мусулмон жамиятлари ўз ёшларини қўлдан бой бериш таҳдиди қаршисида турибди. Ҳозирда ёшлар учун иккита катта хавф мавжуд. Биринчиси, "оммавий маданият" натижасида уларнинг ўзлигини йўқотиши бўлса, иккинчиси эса ёшларнинг тобора радикаллашув ва экстремизмга мойил бўлиб боришидир. Бунинг оқибатида, ёшлар ўртасида турли ёт ғояларга алданиш ҳолати кузатилади. Бу каби салбий ҳолатларнинг одини олишда соф ислом ақидасининг ўрни катта. Мазкур мақолада Имом Мотуридий мероси ва мотуридийлик таълимоти асосида ёшларни бугунги кун таҳдидларидан ҳимоя қилиш ва уларни маърифатга йўналтириш бўйича муҳим фикр-мулоҳазалар келтирилган.*

Калит сўзлар: *Имом Мотуридий, Абу Ханифа, ақида, фиқҳий мазҳаб, мотуридийлик, радикаллашув, ғарблашув, экстремизм.*

Abstract. *It is known that young people are the nation's hope and pillar, its treasure and wealth. Based on their mental and physical energy, the nation will rise, and development and prosperity will be ensured. But today, the Muslim community is facing the threat of losing its youth. There are two major threats to young people right now. The first is their loss of identity as a result of westernization, and the second is the growing tendency of young people to radicalize and extremism. As a result of this, there is a situation of delusion among young people about various alien ideas. Pure Islamic belief has a great role in preventing such negative situations. In this article, based on the legacy of Imam Maturidi and the teachings of Maturidiyya, important opinions are presented on protecting young people from today's threats and directing them to enlightenment.*

Keywords: *Imam Maturidi, Abu Hanifa, creed, jurisprudence, Maturidiyya, radicalization, westernization, extremism.*

مسألة الإقرار بوجود الحقائق في هذا الكون، وبأنّ العقل الإنساني قادر على التوصُّل إلى المعرفة اليقينية في صدد كشف وتبيُّن حقائق الموجودات.

ولأهميّة هذه المسألة، ولكونها حجر الأساس في كلّ معرفة إنسانية؛ فقد صُدّرت بها كلّ مؤلّفات العقيدة الماتريدية، سواء منها المطوَّلات والمختصَرات. حتى إنّنا لنجد مختصَرًا معتصَرًا كمتن (العقائد النّسفية) افتتحه مصنّفه بقوله:» حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقّق» (محمد حسن، ١٤٣٦-٢٠١٥م) ، ثمّ نجد الإمام أبا المعين النّسفي يُطيل النَّفَسَ في شرح وبيان هاتين الحقيقتين في صدر كتابه (تبصرة الأدلة) ويورد إشكالات المشكّكين فيها المنكرين لها، فيقول بصدد ردّه على الذين يشكّكون في كلّ شيء، حتى في المحسوسات، وينكرون كذلك إمكان التوصّل إلى اليقين في المسائل النظرية التي يحتاج البحث فيها إلى الفكر .. يقول رحمه الله:» أجمع العقلاء على أنْ لا مناظرة بيننا وبين مَن هذا قوله؛ لأنّ فائدة المناظرة أن تثبت بالدلائل صحّة قولٍ وبطلان قولٍ آخَر، والعلم الحاصل عن النظر في الدلائل وإن كان يبلغ النهاية في القوة، فطريقُه أخفى من طريق علم الحواس والبدائه، ومن بلغ في الوقاحة والعناد مبلغًا لا يبالي من إنكار ما ثبت من العلوم والحقائق بالحواس وبدائه العقول؛ لا يرجى

وعلم الكلام كما ذكر ابن خلدون رحمه الله:» علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة، والرّدّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السّنّة» (ابن خلدون، ١٩٨٤).

وإذا كانت المدرسة الماتريدية قد نشأت في مرحلة زمنية سابقة وعصور الإسلام الأولى، واستقرّت أسسها وقواعدها وضوابطها في الأزمنة الغابرة، وإذا كانت قد استطاعت أن تقوم بالمهمّة التي أُنشئت لها خير قيام؛ فإنّ تقادم العهد لم يُوهِ أسسها ولم يصدّع أركانها؛ ذلك أنّ بناء هذا المنهج العقلي الشامخ يقوم على أسس متينة ورصينة، ثابتة لا تتزعزع، ولا تخلَق جدّتُها على مر العصور وتعاقب الدُّهور.

نعم، إنّ المسائل والإشكالات التي تواجهها العقيدة الإسلامية قد اختلفت كثيرًا عمّا كانت عليه في العصور السالفة؛ ولكنّ المنهج لا يزال محتفظًا بقوّته، وفيه من مقوّمات الحياة والبقاء ما يجعله قادرًا على النّهوض بنفس الدّور الذي اضطلع به أيّام أئمّته العظام، الذين قعّدوا قواعده ومهّدوا أصوله.

ومن أهمّ ما نلحظه من أساسيّات المنهج في المدرسة الماتريدية ما يتعلّق بالقضيّة الأساسية في كلّ بحث وكلّ مناظرة، وهي المنطلق الموضوعي الأوّل لكلّ بحث علمي ولكلّ حوار هادف؛ ألا وهي

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

إلى حقائق اليقينية؛ تأتي قضية أخرى ذات أهميّة بالغة في المنهج، وهي تحديد مصادر المعرفة، وقد قسّموها إلى ثلاثة مصادر، وهي الحواسُّ السّليمة، والخبر الصّادق، والعقل (التفتازاني، سعد الدين،١٩٨٧م).

إنّ تحديد الطرق التي تُستقى منها المعرفة شرطٌ أساسي لاكتساب المعرفة، ولا مطمع في الاطمئنان إلى معارفنا والثّقة بها ما لم نقف على طرق المعرفة، وما لم نعلم المنهج الذي يجب أن يُتّبع عند محاولة معرفة أيّة مسألة، فكما أنّ ضمانة وصول المسافر إلى الوجهة التي يقصدها معرفة الطريق الموصلة إليها، فكذلك العلوم والمعارف للتوصّل إليها طرق، وكما أنّه ليس كل طريق يؤدّي إلى كلّ وجهة، فكذلك طرق المعرفة، ليس كل واحدة منها يُحَصِّل بواسطتها كلُّ معرفة.

إنّ هاتين الخطوتين ركيزتان أساسيّتان في منهج الماتريدية، وستظلاّن خطوتين أساسيّتين في المنهج المعرفي في كلّ عصر، ولا يمكن تجاوزهما.

لذا أنا أقول يجب أن يتشبّع شبابنا باليقين بهاتين الركيزتين المنهجيّتين الأساسيّتين، حتى نضمن أنّهم قد وضعوا أقدامهم على فم طريق المعرفة بشكل صحيح، وأنّهم سيسيرون فيه سيرًا آمنًا مطمئنًّا واثقًا ببلوغ الهدف بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني – إثبات قدرة العقل على تحصيل القطع: تنقسم المعارف الإنسانية إلى معارف ضرورية ومعارف نظرية، وكلا هذين القسمين يمكن للعقل أن يتوصّل إلى اليقين فيه. وقد أورد أبو المعين النّسفي اعتراض المشكّكين على هذه الحقيقة، وردّ عليهم ردًّا علميًّا مفحمًا، يقول رحمه الله:» وأمّا الكلام في العقل أنه من أسباب المعارف .....

وأهل الحق يقولون: كونُ العقل من أسباب المعارف يعلم بالضرورة. فإنّ العلم الثابت ببديهة العقل علم ضروري كعلم الحواس. فإنّ العلم بأنّ كل الشيء أعظم من جزئه وأنّ جزأه أصغر من كلّه ضروري، فإنّ زيدًا بكليّته أعظم من يده وحدها؛ إذ في كلّه يده وزيادة، ويده أصغر من كلّه، وكذا العلم بأنّ المستَوِيَيْنِ في زمان إذا اتّصف أحدهما بالتناهي في الوجود كان الآخر أيضًا تناهى في الوجود، كمن علم أنّ ولادة زيد وعمرو كانت في ساعة واحدة ثمّ علم أن أحدهما ابن عشرين سنةً؛ علم ضرورة أنّ الآخر ابن عشرين سنة، حتى إنّ الشيء من الشبه والشكوك لا يعتريه، ولو أراد تشكيك نفسه في ذلك لعجز، وعرف من نفسه أنّه مكابر، كما في العلم الحاصل بالحواس، وإذا كان كذلك فمن أنكر على الإطلاق كون العقل من أسباب المعارف قد أنكر العلم الضّروري وتجاهل والتحق بالسوفسطائية، فيعامل بما يعامل به السوفسطائية. وإن أقرّ به فقد أقرّ في الجملة بكون العقل من أسباب المعارف، فلو أنّه أقرّ بذلك وأنكر النظر والاستدلال. فقيل له: الدليل على أنّ النظر طريق العلم أن من اشتغل به واستوفى شرائط النّظر أفضى به إلى العلم منه قبول العلم الثابت بالاستدلال» (النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م).

إنّه ليذكر هذا الكلام في مفتتح كتابه ليثبت به ويؤكّد على وجود العقل، وأنّ هناك معرفة يقينيّة، وحقائقَ مطلقةً لا يشوبها شكٌّ أو وَهْم – لا كما يزعم كثيرون اليوم بأنّه ليس هناك حقيقة مطلقة – وعلى أساس وجود هذه الحقائق والمعارف اليقينية يتحاور النّاس، وبدونها لا يمكن اكتساب أي معرفة و لا قيام أي حوار أو مناظرة، يقول رحمه الله:» ولأنّ المناظرة إنّما تكون بين اثنين إذا كان بينهما أصول مسلّمة حكمها الإثبات، وأصولٌ أخر مسلّمة حكمها النّفي.. ووُجِدَ فرعٌ له شَبَهٌ بكلا النوعين من الأصول بوجه من الوجوه، فيختلف اثنان أنّ إلحاقه بأي الأصلين أولى، وشبهَه بأيّهما كان بوصف العلة، وبأيهما كان بوصف الوجود؛ أعني ما وجد اتّفاقًا من غير أن يكون له علّة الحكم الثابت في الأصل. فيناظران ليظهر وصف العلة من وصف الوجود الواقع اتفاقًا، فيلحق بالأصل الذي يشاركه في وصف علة الحكم الثابت فيه. وإذا لم يكن لهؤلاء المتجاهلة أصل مجمع عليه لا يتصوّر مناظرتهم» (النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م).

وإنّ أبا المعين ليلفت أنظار العقلاء بكلامه الرّائع هذا إلى قضيّة منهجية أساسية في الحوار، هي ضرورة أن ينطلق المتحاوران في أي مسألة من نقطة هي محلّ اتّفاق بينهما؛ من أجل أن يمكن أن يصلوا إلى وِفاق في شأن المسألة محلّ النّزاع.

ولعَمري إنّ هذه النّقطة التي هي نقطة الانطلاق في المنهج الماتريدي، والمنهج الإسلامي بشكل عام، غدت اليوم – للأسف – شيئًا منسيًّا، ومن أجل ذلك لا نجد جدوى لأغلب الحوارات والمناظرات التي تعقد اليوم.

ثمّ يمضي أبو المعين في بحثه مع هذه الفئة، فلا يَعْدَمُ الحيلة في إقامة الحجّة عليهم، ولكن ليس بالمناظرة والحوار ومخاطبة العقل؛ لأنّ هؤلاء قد تنكّروا للعقل تمامًا وأنكروا قدرته على كسب معرفة يُطمأنّ إليها، ولنتركه يبيّن العلاج الذي يقترحه ويدعوا إلى إخضاع هؤلاء المرضى له، يقول رحمه الله:» ولكن ينبغي أن يعاقبوا بقطع الجوارح، والضّرب المبرّح، ومنع الطعام والشراب. فإذا استغاثوا وضجروا وطلبوا الطعام والشراب، قيل لهم: لا حقيقة للقطع والضرب والجوع والعطش. إنّما ذلك كلّه حسبان وظنّ منكم، هو في الحقيقة إيصال الراحة إليكم، وإنعام عليكم إلى أن تتركوا العناد، وتقروا بالحقائق.» (النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م).

ولا شكّ أنّ هذا الكلام الذي يقوله أبو المعين ليس دعوة إلى تطبيق ما يقترحه فعلاً، ولكنّه أسلوب من الحجاج كفيل بأن يوقظ أولئك التائهين عن عقولهم، فإنّ شأن تنبيه هؤلاء إلى ما اقترحه والتلويح بذلك أن يوقظهم من سباتهم، وأن يثيبهم إلى رشدهم.

ثم بعد إقامة الحجّة على وجود العقل، وبقدرته على التوصُّل

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

وسفله؟!» (القاري، ملا علي بن سلطان محمد القاري، ٢٠٠٩م).

أليس هذا بعينه هو دليل بطلان الرّجحان بلا مرجّح، وقانون العلّيّة، غير أنّه صيغ بلغة سهلة فطرية، بعيدةٍ عن تعقيدات الصياغة الفلسفية؟.

ثم بعد أن فرغوا من بيان أدلّة وجود الله، انتقلوا إلى الحديث عن صفات الله تعالى، وأوّلها وأهمّها صفة الوحدانية، واستدلّوا على ذلك ببراهين عقلية يقينية قاطعة، كبرهان التوارد والتمانع، وهذه كلّها أدلّة يقينيّة لا يرتاب فيها من لم يقرّر أن يعاند أو يكابر.

إنّ من الضّروري تبصير الشّباب بهذه الحقائق لكي يعلم أنّ العقيدة الإسلامية ليست ككثير من العقائد غيرها قائمة على التّسليم، وأنّها لا تملك المستند العلمي والعقلي. وإنّ مثل هذا الوهم غدا اليوم كثيرًا بين شباب المسلمين، نتيجة جهلهم بتراثهم العلمي والحضاري الذي خلّفه أئمّة هذا الدين، بخاصّة المتكلّمون.

وإنّ أولى من ينبغي أن ينهض بهذه المهمّة المقدّسة فيبثّ القوة في عقيدة أهل السّنة اليوم هم الذين قاموا بها في العصر الأوّل، فالشمس التي أشرقت آنذاك من سمرقند وبخارى وشاش وما حولها فعمّت بشعاعها جميع الأمّة، ونشرت النّور في ربوعها يؤمل أن تعود فتشرق من هذه البقعة المباركة من جديد.

والمأمول أنّ أهل هذه البلاد يتطلّعون إلى ذلك، وآية ذلك إقامتهم لهذا المؤتمر الذي سيكون منطلقًا لتحقيق هذا المشروع الذي هو مشروع الأمة، ومشروع هذا الدّين العظيم.

المطلب الرّابع – التمرُّس بأساليب الاستدلال والحِجاج:

قد ذكرت آنفًا أنّ المشكلات في قضايا الإيمان تختلف اليوم عمّا كانت عليه في القرون السّالفة، ولكنّ هذا لا يغضّ من قيمة المنهج الذي تبنّته المدرسة الماتريدية، وقد ذكرنا بعض الأدوات التي بقيت محتفظة بقيمتها وبجدواها، وهناك غيرها الكثير في المنهج ممّا له قيمة ثابتة لا يطرأ عليه نسخ ولا نقض ولا نقص.

على أنّ تمرّس الشباب اليوم بقواعد ذلك المنهج من شأنه أن ينمّي فيهم ملَكة النّقد وأساليب البحث والمناظرة، والقدرة على صوغ الحجة، فليس بالضّرورة أن تكون المسائل الجزئية التي تدرس كلّها مسائل عصرية وواقعية اليوم، لأنّ الغرض من دراسة المنهج التأسيس والتأصيل، أمّا المسائل الجزئية فالغرض منها التوضيح فحسب.

على أنّ معظم مكوّنات المنهج إنّما هي قواعد عقلية يقرّ بها العقل الإنساني في كل عصر؛ لا سيّما أنّ من شرط الاستدلال في قضايا العقيدة أن تكون الأدلّة قطعية يقينيّة كما أسلفنا، وأن تكون قريبة التناول في نتائجها، وما كان من هذا القبيل من القواعد والحجج فلا يفقد قيمته مهما كرّت العصور وتعاقبت الدّهور.

بل إنّ من اكتسب الملكة العقلية من جرّاء دراسة تلك القواعد والتدريب عليها، واستطاع أن يتصرّف فيها، وامتلك المهارة في استعمالها؛ يكون قادرًا على الاستدلال بها في ردّ شبهات المشكّكين لا محالة، فعرف أنّه طريق العلم، كاثنين يختلفان في طريق أنّه طريق سمرقند أم ليس بطريق لها، فأدنى ما يقطع به الخصومة أن يقال له: اسلك هذا الطريق فإن أفضى بك إلى سمرقند كان طريقًا إليها، وإن لم يفض بك إليها لم يكن طريقًا إليها، فإذا سلك وأفضى به إليها علم أنّه طريق سمرقند»(النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م).

وإنّ المحافظة على الثّقة بالعقل وبأحكامه، وبيان أسباب الخلل في أحكامه لهو أمرٌ في غاية الأهميّة لكيلا يصبح الشّباب فريسة للتيه والضّيَاع، ولكيلا يفترسهم دعاة التشكيك في كلّ شيء، حتى العقل وأحكامه. فإنّ شأن تقرير الحقيقة في هذا الصّدد ودفع الشّبهات تحصينَ عقول الشّباب.

المطلب الثالث – أصول الإيمان لا يقبل فيها غير الأدلة القطعية: إنّ من الأهمية بالمكان الأول أن يعلم شبابنا أنّ حقائق عقيدتنا قائمة على أصول يقينية قطعية، وأنّ علماءنا قرّروا أنّه لا يقبل في مسائل أصول العقيدة غير الأدلة القطعية، وأنّ الظنّ لا يقبل فيها، وأكّدوا على أنّ ذرّة من الشّكّ في هذه الأصول يخرج هذا الشّاكّ من دائرة الإيمان، ولذا فقد جدّ علماؤنا واجتهدوا في تقرير هذه الأصول بأدلّة عقلية قطعية لا يدانيها أدنى شك، والله عزّ وجلّ أمرنا بهذا صراحة حيث قال:» فاعلم أنّه لا إله إلا الله» (سورة محمد: ١٩). فالإيمان لا يقبل إلا إذا كان علمًا، والعلم كما عرّفوه هو: "هو إدراك الشيء على ما هو به" (الجرجاني، ١٩٨٣م) أي إدراك الشيء كما هو في الواقع.

وأهمّ هذه الأصول، بل أصلها، مسألةُ وجود الله تعالى. ومن أبرز ما يعتمد عليه العلماء من الأدلّة لإثباتها دليل حدوث العالم، وقانون العليّة، ووجود النّظام والإتقان في الكون. فيبدؤون أوّلاً بإثبات أنّ هذا الكون حادث، أي كان عدمًا ثمّ وُجد، وأنّه ليس قديمًا لا أوّل له .. بدؤوا حديثهم عن أدلّة إثبات وجود الله تعالى بهذا، وكلامهم في هذا طويل الذّيل .. ومن أدلّتهم في هذا دليل بطلان الرّجحان بلا مرجّح، وقانون بطلان التسلسل وبطلان الدّور، وبرهان التطبيق .. وهذه براهين صيغت صياغة فلسفية، ولكنّها لا تختلف في مضمونها ومعانيها عن الأدلة التي كان يستدلّ بها أئمّتنا من السّلف إلا في الأسلوب والصّيغة .. فهي لا تختلف في مضمونها عمّا ذكره العلاّمة ملاّ علي القاري من خبر مناظرة لأبي حنيفة t مع بعض المنكرين لوجود الخالق جلّ وعلا، قال القاري:» حُكي عن أبي حنيفة رحمه الله أنّ قومًا من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الرّبوبية، فقال لهم أخبروني – قبل أن نتكلم في هذه المسألة – عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسو بنفسها، وتتفرّغ بنفسها وترجع، كل ذلك من غير أن يدبّرها أحد، فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدًا، فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينة؛ فكيف في هذا العالم كله علوه

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

المطلب الأوّل – الماتريدي نصير أهل السّنّة والجماعة: لا شكّ أنّ السّواد الأعظم من المسلمين هم» أهل السنّة والجماعة» الذين يمثّلون وجه الإسلام العلمي والحضاري والبطولي على مرّ التاريخ الإسلامي، وأنّهم هم الذين يمثّلون حقيقة الإسلام ووسطيّته التي قرّرها الله تعالى بقوله:» وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا» (البقرة: ١٤٣).

وإنّ سدى ولُحمة أهل السّنّة إنّما هم الماتريدية والأشاعرة، وهذه حقيقة لم يكن يجهلها أحدٌ فيما مضى، ولا يجهلها مَن له حظٌّ من الثّقافة والمعرفة اليوم.

ولقد كان معلومًا لدى الجميع أنّ أيًّا من الإمامين أبي منصور الماتريدي وأبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى لم يكن منشئًا لعقيدة ولا منتحلاً لمبدئٍ ابتدعه، بل كان كلٌّ منهما نصيرًا لعقيدة أهل السنّة والجماعة، التي هي مقرّرة في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسول الله، وهي ما عليه أصحاب رسول الله والتابعون وتابعوهم بإحسان، وفي بيان كون الماتريدي غير مبتدعٍ لنحلة خارجة على أهل السنّة والجماعة يقول الزّبيدي رحمه الله:» وليعلم أن كلاً من الإمامين أبي الحسن وأبي المنصور رضي الله عنهما وجزاهما عن الإسلام خيرًا لم يبدعا من عندهما رأيا ولم يشتقا مذهبًا إنما هما مقرّران لمذاهب السلف، مناضلان عما كانت عليه أصحاب رسول الله، فأحدهما قام بنصرة نصوص مذهب الشافعي وما دلت عليه، والثاني قام بنصرة نصوص مذهب أبي حنيفة وما دلت عليه، وناظر كلٌّ منهما ذوى البدع والضلالات حتى انقطعوا وولّوا منهزمين ... فالانتساب إليهما إنما هو باعتبار أنّ كلاً منهما عقد على طريق السلف نطاقًا وتمسك، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدى به في تلك المسائل والدلائل يسمى أشعريًّا وماتريديًّا « (الزبيدي، محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، ١٩٩٤م).

من هنا وجب علينا التأكيد على أنّ هذين الإمامين الجليلين هما رأس أهل السّنّة، وأبرز مَن نهض بحجتهم، وردّ على أهل الأهواء والبدع والفرق الغالية. وينبغي أن يوضّح للنّشء أنّ انتساب أهل السنّة والجماعة لهذين السيّدين الجليلين هو كانتسابهم إلى أبي حنيفة ومالك والشّافعي وأحمد، وإنّ كبار أهل الحديث ليقرّرون هذه الحقيقة، وينتسبون إليهما، كالنووي وابن حجر العسقلاني والكمال بن الهمام وغيرهم كثير رحمهم الله تعالى.

هذه حقيقة معروفة. ولكنّنا نفاجأ اليوم لأسباب عِدّة أبرزُها فشو الجهل بين المسلمين؛ أنّ هناك مَن يصنّف الأشاعرة والماتريدية على أنّها فرق إسلامية، شأنها كشأن المعتزلة والخوارج والقدرية وغيرهم من الفرق التي ظهرت في بعض فترات تاريخنا الإسلامي، ثم صارت حديثًا مطويًّا في بطون الكتب، وصار من ذكريات التاريخ. أجل يعدّون الطائفتين المكوّنتين لأهل السنّة فرقتين ضالّتين خارجتين عن دائرة أهل السّنّة والجماعة. وقد شاهدت أثناء إعداد هذه الورقة اليوم، وتقرير الحقائق الإيمانية، ولا يعجزه أن ينقل تلك الأدلة والحجج إلى لغة اليوم. وهذا ما نلحظه في العلماء الرّاسخين في هذا العصر. بل لقد وجدنا أن أقدر العلماء على إثبات حقائق الدين بلغة العصر، وعلى ردّ كل شبهة يوردها خصوم الدّين هم أولئك الذين تضلّعوا من المناهج الأصيلة التي قرّرتها مناهجنا الكلامية، وكانوا إلى جانب ذلك على اطّلاع على ثقافة العصر، وعلى دراية بلغته.

المبحث الثاني – تحصين الشّباب من الغلو

لقد كانت مشكلة المسلمين الفكرية والعلمية مع غير المسلمين خلال القرون التي تعاقبت بعد ظهور المدرسة الماتريدية والأشعرية، فقد استطاع علم الكلام السّنّي بقوة حججه وهمّة رجاله الذين نهضوا بحجّته خير قيام أن ينسخ العقائد المنحرفة والمقالات الزّائفة للفرق البدعية التي حادت عن الجادّة العريضة التي عليها السّواد الأعظم من المسلمين.

واستمرّ الأمر على هذا على مدى القرون المنصرمة، غير أنّنا فوجئنا في هذا العصر أنّ فئة ليس لها في تاريخ الإسلام سهم، ولا لها في تاريخ العلم من نصيب، قامت تحاول أن تصادر مصطلح أهل السنّة لحسابها، وتغتصبه من أهله، فصاروا يرفعون عقائرهم بتبديع الماتريدية والأشعرية، وزعم أنّهم من الفرق الضّالّة، وأنّهم ليسوا من أهل السّنّة والجماعة .. ولقد حظي هؤلاء بدعم إعلامي ومالي كبير لنشر باطلهم هذا بين المسلمين، ولا سيّما فئات الشباب والنّاشئة .. ولقد استطاعوا – ويا للأسف – أن ينشروا باطلهم هذا في كثير من جهات العالم الإسلامي، مستغلّين جهل المسلمين بدينهم .. وإنّ مرتع الجهل بالدّين هو المرتع الوخيم الذي تنبت فيه حَناظل الانحراف والغلو والتطرّف، وتفعل ما تفعله النار في الهشيم.

إزاء هذا الخطر الذي يتهدّد أمّتنا من داخلها، والذي هو أشبه ما يكون بالسّرطان الذي ينخر الجسم ويذيبه من داخله ليُسلمه لبراثن الموت، إزاء هذا الأمر كان لزامًا على علماء هذه الأمة ومثقّفيها والغيارى عليها أن يهبّوا لمعالجة هذا الوباء القاتل، وذلك بتقوية مناعة النّشء لحمايتهم من جراثيم هذا السّرطان الفكري.

وسبيل هذه الوقاية هو التسلّح بالعلم، وطريق الخروج من ظلمات هذا الجهل يتمثّل في سلوك سبيل العلم والمعرفة، والاستنجاد بالمناهج العلمية والعقلية الإسلامية الصّحيحة .. وإنّ أسلم هذه المناهج هو ما شهد له المسلمون على امتداد تاريخهم بصحّته، وساروا عليه في سيرهم في مدارج العلم ومراقي الحضارة.

أجل إنّ من الضّروريّ تبصير الشباب بالمنهج الإسلامي الصّحيح، الذي يتمثّل في مدرسة ما وراء النهر، وهي الماتريدية، إلى جانب المدرسة الأشعرية.

ولكن كيف يتسنّى لنا تحقيق هذه الغاية؟ .. هذا ما سنحاول الإجابة عليه في المطالب التالية.

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

الأول، وهو قضية الإيمان بوجود الله تعالى وبوحدانيته وصفاته السّنية، وبنبوّة سيّدنا رسول الله، أليس أساس الإيمان بالله تعالى وبالنبوّة قائمًا على العقل المحض، فإذا كان إثبات أساس الدين متوقفًا على العقل؛ فكيف يلغى دوره بالكليّة في مسائل الدين الفرعية؟!.

نعم لقد أيقن أهل السنة أنّ ما هم عليه هو الحقّ، وعلموا أنّ ميزان العقل والعلم والمعرفة ميزان موضوعي حيادي، لا يُحابي أحدًا ولا يميل مع هوى، ولا يجور على أحد، بل يحكم بالعدل والقسط، فقبلوا التحاكم إلى هذا الميزان وهم على ثقة تامّة أنّه سيشهد لهم، وسيقرّر رجحان كِفّتهم على كل من سواهم.

وإنّ أهل السّنّة لم يسعوا في يوم من الأيام إلى إخراج العقل من حياده، ولم يحاولوا أن يقوموا بأسلمة المعرفة كما يطالب بعض الناس اليوم، وسبب ذلك هو أن المعرفة هي الميزان، وهي الحَكَم عند تخاصم الأفكار واختلاف الآراء، والحكم يجب أن يكون محايدًا ليُوثَق بحكمه، ويقبل به كلُّ الأطراف.

ثم إن اعتماد المناهج العقلية لتقرير حقائق الكتاب والسنّة لهو من قبيل الجدال بالتي هي أحسن، وهو ما أمر الله تعالى به، وهو أسلوب قرآني، ألا ترى أنّ الله تعالى ذكر في القرآن الكريم آراء وحجج الفرق الضّالّة من المشركين والوثنيّين وعبدة الكواكب والنّجوم وغيرهم، وردّ عليهم كلّهم بالحجج العقلية الدّامغة. وقد رسم لنا بهذا المنهجَ الذي ينبغي أن نتّبعه في كل عصر، وذلك بأن نتتبّع كلّ الأفكار والمعتقدات الخاطئة لمناقشتها والتحاكم معها إلى ميزان العلم والمعرفة والمنطق العقلي السّليم والسّديد لإثبات الحق ودحض الباطل.

إنّ متكلّمي أهل السنّة والجماعة لم يزيدوا على اتّباع هذا المنهج القرآني والأمر الرّبّاني حين تصدّوا لأصحاب العقائد والنّحَل المخالفة لدين الله ومنهج أهل الحق، وقد كانت جهودهم في معاركهم العلمية والفكرية عبارة عن تفسير لفحوى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وصياغتها بلغة فلسفية وفي قوالب المعقول.

- أليس دليل وجود الله تعالى المعروف بدليل «بطلان الرُّجحان بدون مرجّح» تفسيرًا لقوله تعالى:» أم خلقوا من غير شيء» (الطور: ٣٥) ولكن بلغة فلسفية وصياغة منطقية؟!

- ودليل «بطلان التسلسل وبطلان الدور»؛ أليس تفسيرًا لقوله تعالى: «أم هم الخالقون» الطور: ٣٥و قوله تعالى: «أم خلقوا السماوات والأرض» (الطور: ٣٦).

- دليل وحدانية الله المعروف بـ«برهان التوارد والتمانع» إنّما هو تفسيرٌ لقوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا» (الأنبياء: ٢٢) ، وكما أنّ ترجمة معاني كلام الله تعالى إلى شتّى اللُّغات مطلوب شرعًا؛ فكذلك بيان معانيه بكل أسلوب صحيح مطلوب إذا استدعى الأمر، وتوقّفت إقامة الحجّة على ذلك. وهذا امتثال لقوله تعالى: «وجادلهم بالتي هي أحسن» (النّحل: ١٢٥).

مقطع (فيديو) في (اليوتيوب) من بعض شيوخ هذه الفئات الغالية افتتح كلامه عن الإمام أبي منصور الماتريدي بقوله، هو رئيس فرقة كبيرة من فرق الضّلال ...» فلم أستطع الاستماع إلى تتمّة كلامه لغلظته.

وإنّ تلامذة أمثال هذا الغالي ينشطون على وسائل التواصل المختلفة لبث مثل هذه الدّعاوى الباطلة، ويغرّرون – للأسف – بكثير من شباب المسلمين، ويزجّون بهم في أودية التّيه الفكري والضّلال والغلو.

ويجهل هؤلاء المغرّرُ بهم أنّ تزييف الماتريدية والأشاعرة يعني إلغاء تاريخ الأمّة العلمي والبطولي والحضاري، فليت شعري هل نُسج تاريخ الإسلام منذ أكثر من عشرة قرون إلا من أعمال هاتين الفئتين اللّتين تشكّلان أهل السنّة والجماعة؟، ولو أنّنا ألغينا جهودهم العلمية هل سيبقى في المكتبة الإسلامية كتب تفسير أو حديث أو فقه أو لغة أو إلخ.

ثمّ بأي بطولة سيفتخر المسلمون إذا نحن حذفنا بطولات الماتريدية والأشاعرة؟ .. إذًا ففي تزييفهما إلغاء لكلّ منجزات الأمّة، وهو حربٌ على مجد الأمة ووجودها العلمي والبطولي والحضاري.

ولست مبالغًا في هذا إطلاقًا، ودونكم التاريخَ فاستعرضوه، هل ستجدون مآثر الأمة الإسلامية إلا صنائع الماتريدية والأشاعرة؟.

ثمّ إنْ شئتم فانظروا في أعمال غيرهم ومآثرهم، هل ستجدون سوى التشغيب على بناة مجد الأمة وحضارتها، وهل سترون غير محاولات وضع العصي في عجلات مركبة الإسلام ابتغاء إعاقة حركتها؟.. أجل إنّ أسلاف مبدّعي ومضلّلي الماتريدية والأشاعرة هم الذين عجزوا عن البناء وتقديم خدمة للإسلام؛ فصبّوا كلّ ما يملكون من الطاقات من أجل منع تيّار السنّة من بناء حضارة الأمة ومجدها.

المطلب الثاني – المناهج العقلية في إثبات العقيدة، والرّدّ على أهل الأهواء والبدع: إنّ المناهج الكلامية السّنيّة قامت من أجل تقرير الحقائق التي ينطق بها الكتاب العزيز والسّنّة المطهّرة، والرّدّ على الفرق المنحرفة والمحرّفة لأحكام دين الله، وذلك بالمناهج العقلية.. وقد أرادوا بعملهم هذا أن يثبتوا أنّ العقل لا يخرج في قراراته عمّا هو مقرّر في الكتاب والسّنّة.

إنّ أهل السّنّة والجماعة ما كانوا في يوم من الأيام ليخافوا من الخوض في المعقولات؛ ذلك لأنّهم كانوا ولا يزالون يعتقدون أنّ العقل الذي هو مخلوق لله تعالى لا يمكن أن يقرّر خلاف ما يقرّره خالقه، من أجل ذلك أرادوا أن يقيموا الحجة على أولئك الذين يخالفون دين الله بأدلّة العقل.

إنّ الله عزّ وجلّ حثّ الناس في كتابه العزيز على إعمال العقل، وشدّد النّكير على أولئك الذين لا يتحاكمون إلى قرار العقل وبراهين العلم في كل الأمور، بخاصّة في أمور الدين، وأصل الدّين وأساسه

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

الإيمان بها دخول الإنسان في زمرة المؤمنين، ويترتّب على إنكار واحدة منها خروجه من الملّة، وارتداده عن الدّين والعياذ بالله، ومسائل أخرى هي من قبيل الفروع، وهذه الخطب فيها أيسر، ويمكن أن تتباين فيها أنظار المسلمين، ويسع النّاس أن يختلفوا فيها مع بقائهم جميعًا تحت مظلّة أهل السّنّة والجماعة، ولا يترتّب على القول بأيٍّ من تلك الآراء تبديع ولا تفسيق. قال في شرح العقائد النّسفية:» (ورد النصوص) بأن ينكر الأحكام التي دلت عليها النصوص القطعية من الكتاب والسنة كحشر الأجساد مثلا (كفر) لكونه تكذيبًا صريحًا لله تعالى ورسوله عليه السلام. فمن قذف عائشة بالزنا: كفر (واستحلالُ المعصية) صغيرةً كانت أو كبيرة (كفرٌ) إذا ثبت كونها معصية بدليل قطعي. وقد علم ذلك فيما سبق (والاستهانة بها كفر، والاستهزاء على الشريعة: كفر) لأن ذلك من أمارات التكذيب.

وعلى هذه الأصول يتفرع ما ذكر في الفتاوى، من أنه إذا اعتقد الحرام حلالاً، فإن كان حرمته لعينه، وقد ثبت بدليل قطعي، يكفر. وإلا فلا، بأن تكون حرمته لغيره، أوثبت بدليل ظني» (التفتازاني، سعد الدين، ١٩٨٧م).

إنّ نصوص الكتاب والسنّة التي تتعلّق بمسائل العقيدة يتمّ التعامل معها كما يكون التعامل مع سائر النصوص التي تتعلّق بغيرها من الموضوعات والمسائل، ولما كانت نصوص الكتاب والسنة فيها المجاز والكنايات والاستعارات وغير ذلك من الأساليب العربية؛ فقد كان ذلك سائغًا في قراءة النصوص المتعلّقة بمسائل العقيدة.

فمن حمل النصوص على معنى سائغ لغةً، مقبول عقلاً، متّفقٍ مع تنزيه الله تعالى؛ فهو لم يَرُدّ النّصّ، بل قَبِلَه كما قرّر ذلك حجّة الإسلام الغزالي بقوله:» التصديق: إنما يتطرق إلى الخبر، بل إلى المخبر. وحقيقته: الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول عن وجوده. إلا أن للوجود خمسَ مراتب، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب. فإن الوجود: ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي. فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده، بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق.» (محمد بن محمد بن محمد الغزالي)

وإذا كان هؤلاء الغلاة ينكرون على أهل السنة تأويلهم لبعض صفات الله جلّ وعلا؛ فإنّ الإمام أحمد بن حنبل أوّل، يقول الإمام الغزالي: « فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط: أحدها: قوله: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض). والثاني: قوله: (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن). فانظر الآن كيف أول هذا؟ حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره. فيقول: اليمين تقبل في العادة تقرّباً إلى صاحبها. والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله تعالى. فهو مثل اليمين، لا في ذاته، ولا في صفات ذاته،

المطلب الثالث– لا يثبت الماتريدية صفة إلا إذا ثبتت بالنّصّ أو انعقد عليها الإجماع: يقول الإمام أبو المعين النّسفي في معرض حديثه عن أسماء الله تعالى وصفاته السّنيّة، وبيان منهج الماتريدية في ذلك: «لأهل الحقّ في هذه المسألة طرق: منها طريقة الاستدلال بالاسم الثابت بالنّصوص التي لا ريب في ثبوتها، والإجماع الذي لا تخالف فيه الأمة» (النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م) فهذا بيان لمنهج الماتريدية في الأسماء والصّفات، إمّا نصٌّ قطعي الثبوت قطعي الدّلالة، أي نصٌّ متواتر ثبت بنص كتاب الله تعالى أو ما تواتر من سنّة رسول الله، أو بما أجمع على ثبوته الأمة، ومعلوم أنّ الإجماع لا بدّ له من مستند من الكتاب أو السنّة.

ولما كانت المعتزلة قد نفت أن يكون لله تعالى صفات، حذرًا من الشرك وفرارًا من تعدّد القدماء بزعمهم الباطل؛ فقد تابع أبو المعين حديثه في الرّدّ عليهم بالحجّة والبرهان وبدليل العقل، وأطال النَّفَسَ في ذلك جدًّا؛ ليثبت أنّ ما ورد في الكتاب العزيز من وصف الله تعالى بصفات الحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك صفات حقيقية، الله عزّ وجلّ متّصف بها، وأنّ ثبوت هذه الصّفات ليس فيها أي محذور، ذلك أنّ الممنوع والباطل إنّما هو تعدّد الذّوات القديمة، أمّا ذات قديمة لها صفات قديمة فلا إشكال فيه (النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ١٩٩٠م).

ألا ليت شعري في أيّ نصٍّ من كتاب الله تعالى أو سنّة رسول الله وفي أي كلام مأثور عن سلف الأمة الصالح نجد إنكارًا على من يقول للمعتزلة في معرض الاحتجاج على إثبات صفة العلم والقدرة والإرادة والحياة لله تعالى:» العالمية في الإنسان معلّلةٌ بالعلم، أي أنّنا نصف الإنسان بأنّه عالم لأنّ له صفةَ العلم، فكذلك الله تعالى، عِلّة تسميته عالما هي أنّ له صفة العلم.

وحدُّ العالِم شاهدًا – أي تعريف العالم في البشر – مَن له العلم، فكذلك في حقّ الله تعالى، فنقول: الله تعالى عالمٌ؛ لأنّ له العلم.

ونقول: شرط العلم في الإنسان وجود الحياة، أي اتّصافه بصفة الحياة؛ فكذلك الله تعالى عالم، وله صفة الحياة؛ لأنّ وجود صفة الحياة شرط للاتّصاف بالعلم.

ونقول: التخصيص وإتقان الصّنعة في البشر دليل على وجود القدرة والإرادة، فكذلك وجود الإتقان والإحكام البديع في هذا الكون الذي هو صنعة الله تعالى دليل على أنّ الله تعالى متّصف بالقدرة والإرادة (د. محمد حسن، ٢٠١٥م).

أليس هذا الكلام تقريرًا لما ثبت في كتاب الله تعالى من وصف الله جل وعلا بالعلم والحياة والإرادة والقدرة؟. فما الذي يُنكَر من هذا إذًا.

المطلب الرّابع – التفريق بين القطعي والظّنّي، وأصول العقيدة وفروعها: ليست كل مسائل العقيدة على وِزانٍ واحد، بل هي تنقسم إلى مسائل هي أصول العقيدة، وهي التي يتوقّف على

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

وضرورة السّمع والطّاعة له في غير معصية الله، وأنّ نصبه واجب شرعًا، وأنّه لا ينعزل بالفسق والجور، قال في شرح العقائد النسفية: «(ولا ينعزل الامام بالفسق) أي بالخروج عن طاعة الله تعالى (والجور) أي الظلم على عباد الله تعالى، لأنه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين. والسلف قد كانوا ينقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد، بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم، ولأن العصمة ليست بشرط للإمامة ابتداء، فبقاءً أولى.» (التفتازاني، سعد الدين، ١٩٨٧م)، هذا ما تقرّره كتب العقيدة والفقه عند الماتريدية وعند الأشاعرة، وبسبب مخالفة هذا الأصل العتيد فإنّ معارك الأمة صارت فيما بينها، كالجسم حين تصيبه الأكلة فيأكل بعضه بعضًا، ونسيت الأمّة أعداءها المتربّصين بها والكائدين لها.

الخاتمة والنتائج

نخلص ممّا ذكرنا إلى النتائج التالية:

١- شباب الأمة يتعرّضون لمحاولات شرسة لانسلاخه من دينه، أو لزجّه في الغلو.

٢- التصدّي لمحاولات اختطاف شبابنا يكون بتحصينهم بالعلم والمعرفة.

٣- ينبغي تبصير الشباب بالأسس العقلية المتينة والقطعية التي يقام عليها بنيان العقيدة الإسلامية، بخاصّة نظرية المعرفة في الإسلام، وأدلّة وجود الله تعالى ووحدانيّته.

٤- الإمام الماتريدي نصير أهل السنّة والجماعة، وليس صاحب عقيدة خاصّة مختلفة عن عقيدة أهل السنّة.

٥- المنهج الماتريدي مسلك من مسالك إثبات عقائد الإسلام بالمناهج العقلية.

٦- ليست مسائل العقيدة سواءً، فهناك الأصول التي لا يجوز الخلاف فيها، ويكفر من ينكرها، وهذه لا بدّ أن تكون أدلّتها قطعية، وفروع يمكن الاجتهاد فيها، ويجوز الاختلاف فيها، وهذه أدلّتها ظنية.

٧- المنهج الذي اتّبعه الإمام الماتريدي والمنتسبون إلى مدرسته عصم عقيدة أهل السنة في القرون الغابرة، ولا يزال محتفظًا بقوته، وهو قادر اليوم على صدّ الهجمات المعادية لعقيدة المسلمين، وللردّ على المبتدعة الخارجين على منهج أهل السنّة.

٨- إنّ المنهج الماتريدي الذي حصّن عقيدة المسلمين ودحض حجج خصومه وأعدائه، وأثبت زيف المبتدعة بالأمس، قادر على أن يقوم اليوم بنفس المهمّة اليوم، ولكنّه يحتاج إلى البعث من جديد.

٩- أولى من ينبغي أن يضطلع بهذه المهمّة البلاد التي ظهر فيها الإمام الماتريدي، وتأسّس فيها منهجه، سمرقند وبخارى وشاش وما حولها (أوزبكستان).

ولكن في عارض من عوارضه، فسمي لذلك يميناً. وهذا هو الوجود الذي سميناه الوجود الشبهي، وهو أبعد جوه التأويل، وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة؛ لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر، لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي، ولو أمعن لظهر له ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره، مما لم يتأوله». (محمد بن محمد بن محمد الغزالي)

والأصول قطعية والفروع يجري فيها الظّنّ، والاجتهاد فيها والاختلاف فيها وارد ومشروع. وليس من حقّ أحد أن يجيز التأويل للإمام أحمد فقط وأن يحرّمه على سائر النّاس، فما جاز له t جاز لغيره.

المطلب الخامس – عدم تكفير أهل القبلة: إنّ من أهمّ العلامات الفارقة التي تميّز أهل السنّة والجماعة عن سائر فرق المبتدعة وأهل الأهواء أنّ أهل السّنّة لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة، فمن توجّه لقبلتنا وصلّى صلاتنا فهو مسلم مؤمن. أمّا غيرهم فيسارعون إلى التكفير، وكلّما كانوا أوغل في البدعة كانوا أسرع إلى التكفير، وأكثر جراءة عليه. وقد كان تكفير الناس ولا يزال عند أهل السنّة حمىً لا يُقتحَم إلاّ بوجود الإذن الصّريح القطعي من الشارع، فلا يحكمون بكفر أحدٍ إلا إذا قال أو فعل شيئًا مكفّرًا صراحة وبوجه قطعي، بحيث لا يمكن أن يفسّر قوله أو فعله بغير تكذيب الله تعالى ورسوله، أمّا إذا أمكن بأوهى احتمال تأويل تصرّفه بغير الكفر فلا يكفّر، في حين أنّ المبتدعة الأصلُ في الناس عندهم أنّهم كفرة، وعليهم أن يثبتوا إيمانهم، ثم لا يثبت إيمانهم إلا بما يقرّره المبتدع.

المطلب السادس – إلحاق مسألة عدم الخروج على الحاكم بمسائل العقيدة: من المسائل الخطيرة التي تشكّل واحدة من أعظم أزمات الأمة اليوم؛ الخروج على الحكّام، وما أكثر الشّباب الذين ينجرّون إلى هذا المستنقع بسبب جهلهم، فهم يخوضون هذه المخاضة ولا يدرون أنّهم في هذا قد اتّبعوا منهج الخوارج والشّيعة الذين يرون الخروج على الحاكم الفاسق.

ومع أنّ هذه المسألة ليست من مسائل العقائد في أصلها، فقد ألحقها المتكلّمون بها في الذّكر، فأوردوها في نهايات كتبهم الكلامية بعد الفراغ من المسائل العقدية كلّها. وقد عدّوا هذه المسألة من أصول أهل السنّة والجماعة، وإنّما ألحقوها بها لما ذكره الشّهرستاني بقوله: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان» (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني) ولأنّ وضوحها وَفق المنهج النّبوي صمام أمان للمجتمع ووقاية له من الوقوع في الاضطرابات والفتن. والمتكلمون السنّة حين يتكلّمون في هذه المسألة لا يقرّرون سوى ما تقرّره كتب الفقه التي بني الحكم فيها على نصوص السنة التي بلغت درجة التواتر المعنوي، والتي تدلّ دلالة قاطعة وبأساليب شتّى على حرمة الخروج على الحاكم الجائر،

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X

هذا، والله تعالى أعلم وأحكم، والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

١. مقدمة ابن خلدون ، اسم المؤلف: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، ت (٨٠٨)، دار القلم - بيروت - ٤٨٩١ ، الطبعة : الخامسة، عدد الأجزاء: ١.

٢. التفتازاني، سعد الدين، مسعود بن فخر الدين عمر بن عبد الله التفتازاني، ت(٧٩٢هـ) شرح العقائد النسفية، تحقيق د/أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - الطبعة الأولى - ٧٨٩١م، عدد الأجزاء: ١

٣. النّسفي، أبو المعين ميمون بن محمد النّسفي، ت (٨٠٥هـ) ، تحقيق: الأستاذ الدكتور حسن هاتاي، طبعة رئاسة الشؤون الدينية للجمهورية التركية، أنقرة، الطبعة الأولى ٠٩٩١م، عدد الأجزاء: ١.

٤. القاري، ملا علي بن سلطان محمد القاري، ت(٤١٠١هـ) ، شرح الفقه الأكبر، تحقيق: مروان محمد الشعّار، دار النفائس، دمشق، الطبعة الثانية، ٠٣٤١هـ - س٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.

٥. الزبيدي، محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، ت (٥٤١١) مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة: ٤١٤١هـ، ٤٩٩١م، عدد الأجزاء: ٠١

٦. هيتو، د. محمد حسن، الوجيز في أصول التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة دمشق/ ط الأولى، ٦٣٤١-٥١٠٢م، عدد الأجزاء: ١

٧. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت ٨٤٥هـ)، مؤسسة الحلبي
عدد الأجزاء: ٣

٨. أنوار القرآن وأسرار الفرقان، الملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ٣١٠٢م.

٩. بحر الكلام، أبو المعين النسفي، دار الفتح، عمان-الأردن، ٤١٠٢م.

١٠. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م.

١١. تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، دار الميزان، اسطانبول-تركيا، ٥٠٠٢م.

٢١. كتاب التوحيد، أبو منصور الماتريدي، دار صادر، بيروت-لبنان، مكتبة الإرشاد، استانبول-تركيا، تحقيق: بكر طوبال أوغلي، محمد آروتشي، ٢٠٠١م.

٣١. المسايرة في علم الكلام، الكمال بن همام، المطبعة المحمودية التجارية، القاهرة-مصر، ٩٢٩١م.

REFERENCES

1. Abd al-Rahman bin Muhammad bin Muhammad bin Khaldun al-Hadrami al-Ishbili. (1984). *al-Muqaddimah.* Beirut: Dar al-Qalam.

2. Saad al-Din Masoud bin Fakhr al-Din Omar bin Abdullah al-Taftazani. (1987). *Sharh al-Aqaeed an-Nasafiyya.* Cairo: Library of Al-Azhar.

3. Abu Al-Mu'in Maymun bin Muhammad Al-Nasafi, (1990). *Tabsirat al-Adilla.* Ankara: Presidency of Religious Affairs of the Republic of Turkey.

4. Mulla Ali bin Sultan Muhammad Al-Qari. (2009). *Sharh al-Fiqh al-Akbar.* Damascus: Dar Al-Nafa'is.

5. Muhammad bin Muhammad bin Al-Husseini Al-Zubaidi. (1414). *Foundation for Arab History.* Beirut.

6. D. Muhammad Hassan. (2015). *Al-Wajeez fi Usul al-Tashri' fil Islamiy.* Damascus: Al-Risala Foundation.

7. Abul-Fath Muhammad bin Abd al-Karim bin Abi Bakr Ahmed al-Shahristani. (year of publication is unknown). *Al-Milal wan-Nihal. Al-Halabi Foundation.*

8. Mulla Ali Al-Qari. (2013). *Anwar al-Qur'an wa Asrar al-Furqan.* Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiya.

9. Abu Al-Muin Al-Nasafi. (2014). *Bahr al-Kalam.* Amman: Dar Al-Fath.

10. Al-Khatib Al-Baghdadi. (2002). *Tarikhu Baghdad.* Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami

11. Abu Mansur al-Maturidi. (2005). *Ta'wilat al-Qur'an.* Istanbul: Dar al-Mizan.

12. Abu Mansur al-Maturidi. (2001). *Kitab al-Tawhid.* Beirut: Dar Sader.

13. Al-Kamal bin Humam. (1929). *Al-Musayara fi Ilm al-Kalam.* Cairo: Al-Mahmoudia Commercial Press.

ISSN 2181-1881 E-ISSN 2181-189X